﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنعام: 71]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين جزاءِ المشركين، وثباتِ المسلمين على الهدى والدّين

لمّا ذكر جزاءَ الّذين اتّخذوا دينَهم لعبًا ولهوًا، بأنّه لا وليَّ لهم ولا شفيعَ، وأنّهم مُبْسَلونَ في عذابِ جهنّم؛ أَمَرَ نبيَّه ﷺ، بأن يقولَ لهم: كيف ندعُو مِن دون اللّه أصنامًا لا تنفعُنا، ولا نخشى ضرَّها، ولا تستحقُّ العبادةَ؟ وذلك توبيخًا لهم، وإنكارًا عليهم، ما يقومون به من عبادتها من دون اللّه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنفَعُنَا﴾: (نفع) أصلٌ يدلُّ على خلاف الضَّرِّ، والنَّفعُ: ما يُستَعَانُ به في الوُصولِ إلى الخَيرَاتِ، جاء النَّفعُ مقابلَ الضَّرِّ في القرآن كلّه، وذلك في كلّ شيءٍ بحسبه[2]، "وفي البصائرِ: هو ما يُستعانُ به في الوصول إلى الخير، وقد نَفَعَه نَفْعًا، وانتفع به، والاسم: المنفعة، وعليه اقتصر الجوهريّ"[3].

2) ﴿يَضُرُّنَا﴾: الضُّرُّ والضَّرُّ لغتان، فإذا جمعتَ بين الضَّرِّ والنَّفع فتحتَ الضّادَ، وإذا أفردتَ الضُّرَّ ضمَمتَ الضّاد إذا لم تجعله مصدرًا، كقولك: ضَرَرتُ ضُرًّا، هكذا يستعملُه العربُ. وقال اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ [يونس:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/150، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/411 - 412.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نَفَعَ).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نَفَعَ).

[12][1]، و(ضرّ) أصلٌ، وهو خلافُ النّفعِ، والضُّرُّ: سوءُ الحال، إمّا في النّفسِ لقلّةِ العلمِ والفضلِ والعفّةِ، وإمّا في البدن لفقدانِ جارحةٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلّةِ مالٍ وجاهٍ[2].

3) ﴿نُرَدُّ﴾: (ردد) أصلٌ يدلُّ على رَجعِ الشّيء، رَدَّ إليه جوابًا؛ أي: رجع، الرّدُّ: صرفُ الشّيء بذاته أو بحالةٍ من أحواله، عمّا هو عليه، وسُمِّيَ المرتَدُّ؛ لأنّه رَدَّ نفْسَه إلى كُفْرِه، ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾، نرجع ونصير إلى حالة الكفر، بعد أن فارَقْناهُ[3]؛ أي: نرجع إلى الكفر والشّرك[4]، تقول: رددتُ الشّيءَ أردّه ردًّا، وسُمِّيَ المُرْتَدَّ لأنّه ردّ نفسَه إلى كفره[5]. وقدِ ارْتَدَّ، وارْتَدَّ عنه: تَحوَّلَ، ومنه الرِّدَّةُ عنِ الإسلام؛ أي: الرّجوع عنه، وارتدَّ فلانٌ عن دينه، إذا كَفَر بعد إسلامه[6].

4) ﴿أَعۡقَابِنَا﴾: (عقب) أصلٌ يدلُّ على تأخُّرِ الشّيءِ، وإتيانِه بعد غيره، العَقِبُ: مُؤَخَّرُ القَدَم، وجمعه: أعقاب، ورجع على عَقِبِه: إذا انثنى راجعًا، وانقلبَ على عَقِبَيْهِ[7]. وكَذَلِكَ كلّ شَيءٍ خَلَفَ بعد شَيء، فَهوَ عاقِبٌ له، وقد عَقَبَ يَعقُب عَقْبًا وعقوبًا، ولِهَذا قيل لولد الرّجل بعده: هُمْ عَقِبُه"[8]، وقول النّبيّ ﷺ: «أنا العاقب»[9] يعني: آخر الأنبياء، وكلُّ مَن خَلَفَ بعد شيءٍ فهو عاقِبُه[10]، وقوله تعالى: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾؛ أي: نَرْجِعُ منَ الهدى إلى الكفر والضّلال؛ وأصلُ الرّجوعِ على العَقِبِ إلى وراء، لِعِلَّةٍ في المشي، ثمّ استُعير في المعاني[11].

---

(1) الخليل، العين: (ضرّ).

(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ضرّ، ضرر).

(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (ردّ، ردد).

(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/262، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/514.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردّ).

(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (ردد).

(7) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقب).

(8) الجوهريّ، الصّحاح: (عقب).

(9) هذا طَرَفٌ من حديثِ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ لِي أَسْماءً: أَنا محمدٌ، وأَنا أحمدُ، وأَنا الماحي الّذي يَمْحو اللهُ بي الكُفْرَ، وأَنا الحاشِرُ الّذي يُحْشَرُ النّاسُ على قَدَمي، وأَنا العاقِبُ الّذي ليسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ». أخرجه البخاريّ، صحيح البخاري، : الحديث رقم: (3532)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2354)، والتّرمذيّ، سنن الترمذي، - واللّفظ له -: الحديث رقم: (3052)، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (16734)، وغيرهم.

(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عقب).

(11) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 97، وابن جزيّ، التّسهيل: 1/265، وابن عجيبة، البحر المديد: 2/133.

5) ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ﴾: (هوي) أَصلٌ يدلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ. أَصلُهُ الهوَاءُ بَينَ الأَرضِ والسَّماءِ، وهَوَى الشَّيءُ يَهوِي: سَقَطَ. واستهواهُ الشّيطان؛ أي: استَهامَهُ[1].

وقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ الاستهواءُ استفعالٌ مِن هَوَى في الأرض إذا ذهَب فيها كأنّها طلبت هُوِيَّهُ، وحَرَصَتْ عليه[2]؛ أي: سقوطه منَ الموضعِ العالي إلى الوَهْدَةِ العميقة[3]؛ أي: أَخرجَتْهُ عنِ الطّريق[4].

6) ﴿حَيۡرَانَ﴾: (حير) أصلٌ يدلُّ على التَّرَدُّدِ في الشّيء. وتَحَيَّرَ الماءُ: اجتمَعَ ودار. ورجلٌ حائرٌ بائرٌ، إذا لم يتّجه لشيء. وحَيْران، وتحيَّر واسْتَحارَ: إذا تَبَلَّد في الأمر وتردَّدَ فيه[5]. قال تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ﴾، الحَيْرة: هي التّردّد في الأمر لا يَهتدي إلى مخرَجٍ منه ولا يتوجّهُ له طريق[6]؛ أي: تائهاً ضالًّا عنِ الجادَّة، لا يدري كيف يصنع، كيف يسلك، وأين يذهبُ[7]. "وتَحَيَّرَ واستَحارَ: نَظَرَ إلى الشّيءِ، فَغُشِيَ عليه، ولم يَهتَدِ لسبيلِهِ، فهو حَيرانُ وحائِرٌ، وهي حَيْراءُ، وهم حَيارَى، ويُضَمُّ[8].

7) ﴿أَصۡحَٰبٌ﴾: (صحب) أصلٌ يدلُّ على مقارنةِ شيء ومقارَبَتِه، وكلُّ شيءٍ لاءَمَ شيئًا فقد استصحبه. والصّاحِبُ: الملازِمُ؛ إنسانًا كان أو حيوانًا، ولا يُقال في العُرْفِ إلّا لمَن كثُرَت ملازمتُه[9]، ﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٌ يَدۡعُونَهُۥٓ﴾؛ أي: رُفقة[10]، والصّاحب: المعاشِر، لا يتعدَّى تعدِّي الفعل، يعني: أنّك لا تقول: زيدٌ صاحبٌ عمرًا، لأنّهم إنّما استعملُوه استعمالَ الأسماء، نحو: غلامُ زيدٍ. ولو استعملوه استعمالَ الصّفة، لقالوا: زيدٌ صَاحِبٌ عمرًا، وزيدٌ صَاحبُ عَمرٍو، وعلى إرادةِ التّنوين كما تقولُ: زيدٌ ضَارِبٌ عَمرًا، وزيدٌ ضاربُ عَمرٍو. تريدُ بغيرِ التّنوين ما تريدُ بالتّنوين[11].

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (هوى، هوي).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/37، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/168، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/514، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/99.
(4) ابن جزيّ، التّسهيل: 1/265.
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حير).
(6) الواحديّ، البسيط: 8/223، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/534، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/99.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/37، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/514، وابن جزيّ، التّسهيل: 1/265، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/151.
(8) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (حير).
(9) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (صحب).
(10) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/99.
(11) الزّبيديّ، تاج العروس: (صحب).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنـكـارُ ارتـدادِ المسلمين عن عـبـادة الـلـه، والأمـرُ بالإسلام لربّ العالمين

يخاطبُ اللّهُ تعالى النّبيَّ بأنْ قُلْ للمشركين الّذين دَعَوكَ إلى دين آبائك: أَنَعْبُدُ الأصنامَ الّتي لا تنفعُ مَن عَبَدَها، ولا تَضُرُّ مَن ترك عبادتها، ونُرَدُّ إلى الشّرك، بَعْدَ أن هَدانا اللّهُ تعالى إلى دين الإسلام والتّوحيد[1]! والمقصودُ من هذه الآية الرّدُّ على عَبَدَة الأصنام، وتأكيدًا لقوله تعالى قبل ذلك: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [غافر: 66]، فقال: قُلْ: أَنَدْعو من دون اللّه؛ أي: أَنعبدُ من دونِ اللّهِ النّافعِ الضّارِ ما لايَقْدِر على نَفْعِنا، ولا على ضرِّنا، ونُرَدُّ على أعقابنا، راجعينَ إلى الشّرك بعد أن أنقذَنا اللّهُ منه، وهدانا للإسلام؟[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرضُ منَ الاستئناف في جملة ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ﴾:

التّأييسُ من ارتدادِ المسلمينَ عنِ التّوحيدِ، مَلمَحٌ قرآنيٌّ سديدٌ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، استئنافٌ ابتدائيٌّ لتأييس المشركين من ارتداد بعض المسلمين عن الدّين، فقد كان المشركون يحاولون ارتدادَ بعض قرابَتِهم، أو مَنْ لهم به صلةٌ[3]، "يَدلُّ السّياقُ على أنّ عَرْضًا منَ المشركين كان لبعض المؤمنين، لأنْ يعبدوا معهم آلهتَهُم، فأَمَرَ اللّهُ تعالى رسولَه أن يردّ عليهم عَرْضَهمُ الرَّخيصَ، مُنْكِرًا عليهم ذلك أشدَّ الإنكار"[4].

فائدةُ الأمرِ بالقولِ دونَ التّعبيرِ المباشرِ:

الأمـرُ بالقول وتلقينُ المقولِ، بغرضِ تأكيدِ النّصِّ والمضمونِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أمر اللّهُ تعالى النّبيَّ ﷺ والمسلمين، بأن يقولوا في احتجاجهم هذه المقالة[5]، فَيُجاهِرونَ

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/124.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/25.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/299.
(4) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/78.
(5) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/148، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/170.

باستنكارِهم عبادةَ غير اللّه[1]. وتلقينُ القَولِ بمقولٍ ما يدلُّ على أهميَّتِه؛ لأنّه يجب أن يُقالَ بصيغةٍ لا يشوبُها شكٌّ، قَطْعًا لأطماعهم عنِ ارتدادهم[2].

الغرضُ المجازيُّ منَ الاستفهام في ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، جاء الاستفهامُ لغرضٍ مجازيٍّ وهو النّفيُ، للدّلالة على الإنكار والتّوبيخ[3]؛ أي: كيف ندعو أصناماً من دون اللّه لا تنفعُنا إن أردنا منها نفعًا، ولا نخشى ضرَّها، ومَن كان هكذا فلا يستحقُّ العبادةَ[4]، توبيخًا للمشركين[5]، فيقولون: (هل يصحُّ أن نعبدَ غيرَ اللّه، ممّا لا يملكُ جلبَ نفعٍ، ولا دفعَ ضرٍّ، وننتكسُ في الشّركِ، بعد أن هدانا اللّهُ إلى الإيمان)[6].

دلالةُ الاستفهامِ على نفيِ وقوعِ الشّركِ منَ المؤمنين، توبيخٌ للمشركين

بلاغةُ التّعبير بالدّعاء عن العبادة:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ذكرَ الدّعاءَ وأرادَ العبادةَ، فذكرَ الجزءَ وأراد الكلَّ[7] على سبيل المجاز المُرسَل؛ لأنّ الدّعاءَ يَعمُّ العبادةَ وغيرها؛ لأنّ مَن جعلَ شيئًا موضعَ دعائِه فقد عبدَه[8]، والدّعاءُ أظهرُ أشكالِ العبادةِ وأخصُّها.

الدّعاءُ أظهرُ أشكالِ العبادة، وهو وشيجةُ الوصلِ بالله

دلالةُ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

عَبَّرَ النّظمُ القرآنيُّ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ بـ ﴿مِن﴾ الدّالّة على ابتداء الغايةِ، للدّلالة

تسليطُ نفيِ النّفعِ والضّرِّ على كلّ مدعوٍّ سِوى الله تعالى

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/306.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/298، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/530، والآلوسّي، روح المعاني: 4/159.
(3) الجرجانّي، درج الدّرر: 2/718، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/551، وابن جزيّ، التّسهيل: 1/265، والنّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 6/113، وابن عجيبة، البحر المديد: 2/133.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 4/170.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2554.
(6) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 861.
(7) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/154.
(8) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/306.

على أنّهم نَفَوا دعاءَ كلِّ أحدٍ غير الله تعالى، "هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَه اللّهُ للآلهةِ وللدُّعاةِ الَّذين يدعونَ إِلَى اللّه، كَمَثَلِ رجلٍ ضَلَّ عَنِ الطَّريق تائهًا ضالًّا، إِذ ناداه مُنَادٍ: فُلانَ بنَ فُلانٍ، هَلُمَّ إِلَى الطَّريق، وَله أَصحَابٌ يَدعُونَهُ: يا فُلانَ بنَ فُلانٍ، هَلُمَّ إِلى الطَّريق، فَإِن اتّبع الدَّاعيَ الأوّلَ، انْطَلَق بِهِ حَتَّى يُلقيه في هَلَكَةٍ، وَإِنْ أَجَابَ مَن يَدعُو إِلى الُهدى، اهتَدَى إِلَى الطَّريق؛ وهذه الدّاعية الَّتي تَدعُو في البَريَّة الغيلان"[1]، يَقُول: مثلُ مَن يعبدُ هَذِه الآلهَةَ من دون اللّه فإِنَّهُ يرى أنّه في شَيءٍ حتّى يَأتِيه المَوتُ فيستقبل الهلكة.

فائدةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿مِن دُونِ﴾ الدّالِّ على دُنوِّ الرُّتْبةِ:

الإشـــارةُ إلى تحقيرِ ما سوى الله، وتدنّي رتبةِ ما عداه

قولُه جلّ شأنُه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، عبّر عن غير اللّه تعالى بلفظ ﴿دُونِ﴾؛ إشارةً إلى تحقيرِ ما سواه وسُفولِه، أي: أَنَعبدُ متجاوزينَ عبادةَ اللّه الجامعِ لجميعِ صفاتِ الألوهيّةِ، ومنها: النّفع والضّرّ، إلى عبادةِ ما لايَقْدِرُ على نَفْعِنا ولا ضَرِّنا؛ وأدنى مراتبِ المعبوديّةِ القُدرةُ على ذلك[2]؟! وفيه إشارة إلى أنّه مهما كان في نَظَرِهم، فهو دون اللّه؛ لأنّ اللّهَ هو العليُّ المسيطرُ على كلّ شيء[3].

السّرُّ بنَفْيِ النّفع والضّرّ في سياق نفي الشّركِ وإنكاره:

اتّـبـاعُ آلهتهم الـعـاجـزة، مُـسـتـنـكَـرٌ في العقل السّليم والدّين القويم

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، نفى قدرةَ الأصنامِ على النّفع والضَّرِّ، لينفيَ اسْتِحقاقَهُمُ العبادةَ؛ لأنّ نفيَ استحقاقِ العبادةِ إنّما يكون بنفي القدرة[4]، فلمّا نفى ذلك عنهم، أَبانَ أنّه لا يمكن أن يَعبدوهم بحالٍ منَ الأحوالِ؛ ليكونَ المشركون على غايةِ اليأسِ من اتِّباعِ المسلمينَ لهم[5].

(1) السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 3/295.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/551، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149، والآلوسّي، روح المعاني: 4/177، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/375.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2552.
(4) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/154.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/150.

العلّةُ بنفي النّفع والضّرّ، دون التّصريح بنفي القدرةِ:

نفيُ مُتعلَّقات القدرة، منَ النّفع والضّرّ، أبلغُ في نفي القدرة

قولُهُ جَلَّ شأنُه: ﴿أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، نفى القدرةَ عنِ الأصنام بنفي القدرةِ على النّفع والضّرّ؛ لأنّ الواقعَ أنّهم لا يَقْدِرون على ذلك؛ ولأنّ نفيَهُما أبلغُ[1]؛ لِمَا فيه منَ النّصِّ على انتفاء أوجُهِ القدرةِ، الّذي يؤولُ إلى انتفاء القدرةِ منَ الأصل، "ولو كانت تستطيعُ الضّرَّ لأَضرَّتْ بالمسلمين؛ لأنّهم خَلَعوا عبادتَها، وسَفَّهوا أَتْباعَها، وأَعْلَنوا حقارَتَها"[2].

علّةُ تقديمِ ذِكْرِ النّفع على الضّرّ:

السّياقُ مضى في تعدادِ النِّعم؛ لأنّ الدّاعي إنّما يطلبُ النّفعَ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، قَدَّمَ نفيَ النّفعِ على نفي الضّررِ؛ لأنّ نفيَ النّفعِ أَجْلَبُ للتَّرْكِ، إذ إنّ مَن يدعو إنّما يدعو لنفعِه لَا للضّرر، ولذا قُدِّمَ عليه[3]، ولأنّ سياقَ سورةِ الأنعام فيه تعدادُ النِّعَم، كقوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: 61]، ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 63][4].

جماليّةُ الطِّباقِ في قوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾:

تأكيدُ المعنى بالجمع بين النّفع والضّرّ في جملةٍ واحدةٍ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ طِباقٌ بين قوله: ﴿يَنفَعُنَا﴾، و﴿يَضُرُّنَا﴾، وهو منَ المحسِّنات البديعيّة[5]؛ حيث جمع بين كلمتين متضادّتين في المعنى، والمرادُ من ذلك تأكيدُ المعنى وتوضيحُه.

حكايةُ المقولِ بصيغةِ المتكلِّمينَ:

السّياقُ يعمدُ إلى تأييسِ المشركين منِ ارتدادِ أحدٍ منَ المسلمين

قولُه جَلَّ شأنُه: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، أَمرَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ أن يقولَ هذه العبارةَ، بصيغةِ المُتكلِّمينَ، وما

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/80.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/104.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2554.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/150.
(5) الصّابونّي، صفوة التّفاسير: 1/370.

بعده كذلك: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ و﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ﴾، فالنّبيُّ ﷺ كان يتكلّمُ ومعه المؤمنون[1]؛ ليلقي اليأسَ في قلوبِ المشركين من أن يعودَ أحدٌ إلى الشّركِ بعد الوحدانيّة[2].

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِنَا﴾:

العطفُ على فعلِ الدّعوةِ في صدر الآيةِ؛ يُدخِلُه في النّفي والإنكارِ

قولُهُ جَلَّ شأنُه: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿أَنَدۡعُواْ﴾[3]، فيكون داخلًا في حكم الإنكارِ والنّفي[4]، فكيف يردُّنا أحدٌ إلى الضّلال بعد الهدى، وإلى الباطل بعد الحقّ، واللّه تعالى هادينا[5].

السّرُّ بالتّعبيرِ بما لم يُسَمَّ فاعله في ﴿وَنُرَدُّ﴾:

البناءُ للمفعول اهتمامٌ بالرّدّ على الأعقاب، لا بِمَن حاولَ أنْ يردّ

قولُهُ جلَّ شأنُه: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِنَا﴾ آثرَ التّعبيرَ بالأهمّ، وهو انتفاءُ ارتدادهم وإنكاره، فذكره بصيغة المبنيّ للمجهول؛ لأنّ نفيَه في هذا السّياق أهمُّ من بيان مَنِ الرّادُّ، فالمُنكَرُ هو الرّدُّ نفسه من أيِّ رادٍّ كان[6].

إيثارُ التّعبيرِ بـ ﴿وَنُرَدُّ﴾ دون (نرتدّ):

لم يعبّر بـ (نرتدّ) قطعًا لأطماعهم برجوع المسلمين إلى الشّرك

قولُهُ جَلَّ شأنُه: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِنَا﴾ آثرَ التّعبيرَ بـ ﴿وَنُرَدُّ﴾ الدّالَّ على أحدٍ يردّهم، دون (نرتدّ) الدّالّ على الارتداد بأنفسهم؛ لتوجيه الإنكارِ إلى الارتدادِ بردِّ الغير، تصريحًا بمخالفة المُضلِّين، وقطعًا لأطماعهم، وإيذانًا بأنّ ارتدادَهم بأنفسهم ليس في حيِّزِ الاحتمالِ ليُحتاجَ إلى نفيه وإنكاره[7]، وأنّ التّفكيرَ في الارتداد الذّاتيّ أمرٌ غيرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/300، وطنطاويّ، الوسيط: 5/104.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2555.
(3) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 6/113.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/375، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/300.
(5) الجرجانيّ، درج الدّرر: 2/718، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2553.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/151.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149، والآلوسّي، روح المعاني: 4/178.

واردٍ أصلًا، وإنّما الكلامُ عن وجود المحاولةِ اليائسةِ من مُريدِ ذلك من غيرِهم، كدليلٍ على رسوخ الإيمانِ وثباتِه.

السّرُّ في التّعبير عنِ الشّرك بالرّجوع على الأعقاب:

الشّركُ مقبَّحٌ في الـذِّكْـر، منبوذٌ وراء الظَّهْر

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾، عبّر عنِ الشّرك بكونه رجوعًا على الأعقاب، بتصويره بصورة ما هو عَلَمٌ في القُبْح؛ زيادةً في تقبيحِه، وإشارةً إلى كون الشّركِ حالةً قد تُركَت ونُبِذتْ وراءَ الظّهر[1]؛ أي: أَنرجِعُ مُدْبِرينَ على أَعْقابِنا، مُنَكَّسِينَ بعد أن أبانَ اللّهُ الحقَّ واهتدينا، وذُقْنا حلاوةَ الإيمان[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾:

الـرّجـوعُ على الأعـقـابِ ارتـدادٌ عنِ الدّين، وهو قَبيحٌ مستنكَرٌ في كلّ حين

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾ شبّه الرّاجعَ عن دينه بالرّاجع على عَقِبِه، فَحَذفَ المشبّه وأبقى المشبَّه بهِ للاستعارة التّصريحيّة، بجامعِ الرّجوعِ عنِ المقصد والتّخلّفِ عنِ التّقدّم، وذلك لِذَمّ الارتداد.

مَلْمَحِيّة الكِناية في قوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾:

الـــرّدُّ عـلى الأعـقـاب ضلالٌ بـعـدَ هـدايـةٍ، وجـهـالـةٌ بعد عنايةٍ

قوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾: "قيل: إنّه كنايةٌ عنِ الذّهاب من غير رؤيةِ موضعِ القدم، وهو ذهابٌ بلا عِلْم، بخلافِ الذّهابِ مع الإقبال. وخِطابُ (قُلْ)، وإنْ كان للنّبيِّ، لكن فاعلُ (ندْعُو) و(نُردُّ) عامٌّ له ولغيره، والمعنى: (أَيَليقُ بنا معاشرَ المُسلمين ذلك؟)، فلا يَرِدُ أن ذلكَ لم يكنْ منَ النّبيِّ ﷺ حتّى يُتصوّر ردّه إليه؛ لأنّه لتغليبِ مَن أسلم منَ المؤمنين، وليس مخصوصًا بالصّدّيق أيضًا، بسبب النّزول. وقيل: الرَّدُّ على الأعقاب بمعنى: الرّجوع إلى الضّلال والجهل، شِركًا أو غيره"[3]. وقيل: "أَنُرَدُّ إلى الضّلال بعد الهدى،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149، والآلوسّي، روح المعاني: 4/178، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/396، والصّابونيّ، صفوة التّفاسير: 1/370.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2553، وطنطاويّ، الوسيط: 5/104.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/79.

وإلى الباطل بعد الحقّ، وإلى الظّلمات بعد النّور، وعبّر ﷺ عن ذلك بقوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾"[1].

علّةُ دلالةِ الرّجوعِ على الأعقابِ على الذّمّ:

الـرّجـوعُ على العَقِبِ رجوعٌ مـنَ الـعِـلـم والـهـدى إلى الجهل والضّلال

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾ استُعملَ لتقبيحِ الرّجوعِ منَ الإسلام إلى الكفر؛ لأنّه ذهابٌ من غير رؤيةِ مَوضِع القدم، فهو ذهابٌ بلا علمٍ بخلافِ الذّهاب مع الإقبال[2]، فاستُعملَ تمثيلًا في التّلبُّس بحالةٍ ذميمةٍ فارَقَها صاحبُها ثمّ عاد إليها، وذلك أنّ مَن يخرجُ في حاجة فإنّه يمشي إلى غرضه مُتقدِّمًا، فإذا رجع قبل الوصول فقد أضاعَ مَشْيَه فيكون رجع على عَقِبَيْهِ[3]. "ويُقال لكلّ مَن أعرض عنِ الحقّ إلى الباطل: إنّه رجعَ إلى الخَلْف، ونَكَصَ على عقبَيْه، ورجعَ القَهْقَرى، والسّببُ: أنّ الأصلَ في الإنسان هو الجهلُ، ثمّ إذا ترقّى وتكامل حصل له العلم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [النّحل: 78]، فإذا رجع منَ العلم إلى الجهل مرّةً أخرى، يُقال له: رُدَّ على عَقِبَيْهِ"[4].

إيثارُ التّعبيرِ عنِ الرِّدّة بـ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾:

عبارةُ (الرَّدّ على الأعقابِ) أَبْلَغُ في الدّلالةِ على الذَّمِّ والاستقباحِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾، تمثيلٌ لحالِ المرتدِّ إلى الشِّركِ بعد أن أَسْلَمَ، بحالِ مَن خرجَ في مُهِمَّةٍ فرجعَ على عقبَيْهِ، ولم يَقْضِ ما خَرج له، وهذا أبلغُ في تمثيلِ سوءِ الحالةِ من أن يُقال: (نَرْجِعُ إلى الكفرِ بعدَ الإيمانِ)[5].

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/79.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/80.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/25، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/300.
(4) وهبة الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/254.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/300.

تأكيدُ إنكارِ الارتدادِ بذِكْرِ الهدايةِ:

الـرّدّةُ بالرّجوعِ إلى الكفرِ شقاءٌ؛ لأنّه سَلْبٌ بعد عطاءٍ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، عَقَّبَ بهدايةِ اللّه تعالى لهم، على نفيِ ارتدادِهم وإنكارِه؛ لتأكيد ذلك النّفي والإنكار[1]، فكيف نَكْفُرُ بعد أنْ وَفَّقَنا اللّهُ للإيمان به، وأَنْقَذَنا منَ الشّرك[2].

دلالةُ إسنادِ الهدايةِ لله تعالى:

أُسـنِـدَ فعلُ الهدايةِ إلى اللهِ سبحانه؛ لأنّه لا موفِّقَ للهُدى سِواهُ

قولُهُ جَلَّ شأنُهُ: ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، أسندَ الهدايةَ إلى اللّه تعالى، فلم يقُل: (إذ اهتدينا)، كأنّه قيل: أَنُرَدّ إلى ذلك بإضلالِ المُضلِّ بعد إذ هدانا اللّه الّذي لا هاديَ سِواهُ[3].

بلاغةُ التّشبيهِ التّمْثيليّ:

تـشـبـيـهُ حـالِ مـجـيـبِ داعـي الـضّـلال، بحالِ التّائهِ عن سبيلِ المحجَّةِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، تشبيهٌ لمَن يدعو إلى الشّرك بعبادةِ الأصنامِ الّتي لاتَضرُّ ولاتَنفعُ، ولمَن يدعو إلى عبادة اللّه ﷻ الّذي يَضرُّ وينفعُ، ومعنى التّشبيه: "أَنُرَدُّ على أَعقابِنا مشبَّهين بالّذي استَهْوَتْه مَرَدَةُ الجنِّ واستغوَتْه إلى المهالك؟"[4]. والخلاصةُ من هذا التّشبيه أنّ مَن يرتدَّ مشركًا بعد الإيمان كمَن جعلَه الجنونُ ضالًّا في الفَلَواتِ، حيرانَ لايَهْتدي، تاركًا رِفاقَه على الطّريق المستقيم، ينادونه: عُدْ إلينا، فلا يستجيبُ لهم لانْجذابِه وراءَ ما تراءَى له بغيرِ عقلٍ؛ وهذا مبنيٌّ على ما كانت تزعمه العرب وتعتقده من أنّ الجنّ تستهوي الإنسانَ، والغِيلان تستولي عليه"[5].

دلالةُ صيغةِ الاستفعالِ في الفعل ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ﴾:

بـيـانُ أنّ المُسْتَهْوَى مطلوبٌ على وَجْهِ المبالغةِ

آثرَ التّعبيرَ بصيغة استَفعَلَتْهُ ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ﴾، ولم يقُل: (أهوَتْه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/151.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/178.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/37، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/514، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/99، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/165.

الشّياطينُ) للمبالغة، كأنّها طلبَت من نفسها هُوِيَّهُ وحَرَصَت عليه[1]، والمبالغةُ تُظهِرُ بأنّ الهُوِيَّ كان مطلوبًا؛ وما كان مطلوبًا كان أجدرَ بالوقوع والتّحقُّقِ، وعلى هذا فـ ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ﴾ تأتي بمعنى: أَسقطَتْه، أو جاءَتْه من قبل هَواهُ.

توجيهِ القراءاتِ القرآنيّة في ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ﴾:

قرأ الجمهورُ ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ﴾ بالتّاء السّاكنة من غير ألفٍ[2]، على تأنيث الفعلِ على معنى جماعة الشّياطين، وقرأ حمزة (استهواه) بألفٍ مُمالَةٍ بعد الواو[3]، على تذكير الفعل لكون الفاعل جمع تكسير، فالتّذكيرُ على معنى جمع الشّياطين.

اختلافُ القراءة يَفسَحُ المجالَ لأكثرَ من معنًى

نُكتةُ إيثارِ الجمع على الإفراد في لفظ ﴿أَصۡحَٰبٌ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٌ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى﴾: آثَرَ التَّعْبيرَ بصيغةِ الجَمْعِ: ﴿أَصۡحَٰبٌ﴾، لِبَيانِ تَمَكُّنِ الحَيرةِ منه، فَكَثْرَةُ النّاصحينَ مع عدمِ الاستجابةِ لهم، دليلٌ على تمكُّنِ الكفرِ[4].

التّعبيرُ بالجمع دونَ المفرَد دلالةٌ على تمكُّن الحَيرةِ والضّلالِ منه

دلالةُ مجيءِ الصّفةِ جملةً فعليّة مضارعيّة ﴿يَدۡعُونَهُۥٓ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى﴾، صفةٌ لأصحابٍ؛ أي: لذلك المُستَهوَى رُفْقَةٌ يَهدونه إلى الطّريق المستقيم[5]، وعبّر بالفعل المضارع للدّلالة على استمرار دعوتهم له وتجدُّدِها، وفيه استحضارٌ للصّورة بزيادةٍ في بيانِ تمكّنِ الحَيْرةِ منه، فهو مستمرٌّ على حَيْرَتِه، وامتناعِه عن قَبول دعوةِ أصحابِه المتجدّدة.

إفادةُ تَجَدُّدِ الدّعوةِ إلى الهُدى واستمرارِ الحَيْرةِ

فائدةُ التّعبيرِ المدعوّ إليه بالمصدر ﴿إِلَى ٱلۡهُدَى﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى﴾ الهدى مصدرٌ أُطلِقَ

التّعبيرُ عن الصّراط المستقيم على أنّه هو الهُدى نفسه

(1) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/155.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/258.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/258.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/151.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149.

على الصّراطِ المستقيمِ[1]، تسميةً للصّراط بالهُدى للمُبالغةِ، كأنّه نَفْسُ الهدى[2].

بلاغةُ الإيجازِ بالحَذْفِ:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ﴾، أَضْمَرَ فِعْلَ القول قبلَ قوله: ﴿ٱئۡتِنَاۗ﴾ لدلالة ﴿يَدۡعُونَهُۥٓ﴾ على ذلك؛ والتّقديرُ: يقولون له: ائْتِنا؛ أي: وله أصحابٌ يدعونه إلى الطّريق المستقيم قائلين له: دَعْ طريقَ الضَّلالِ، وعُدْ إلينا[3].

الإيجازُ جمالٌ للمَبْنى، وإيحاءٌ بالمعنى

الغرضُ من تَكْرارِ فعل الأمر ﴿قُلۡ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾، كرّر الأمرَ بالقول اعتناءً بشأن المأمورِ به؛ ولأنّ الّذي سَبَقَ كان للزَّجْرِ عنِ الشِّرك، وهذا حثٌّ على الإسلام[4].

تَكْرارُ القولِ يفيدُ اختلافَ المضمونِ المأمورِ بقوله

فائدةُ الأمرِ بالقول دونَ الإخبارِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾، أَمَرَهُ اللّهُ سبحانه بأن يقولَ لهم: إنّ هُدى اللّهِ؛ أي: دينَه الّذي ارْتَضاهُ لعبادِهِ هو الهُدى وما عَداهُ باطِلٌ[5]، والتَّلقينُ بمقولٍ يدلّ على أهميَّتِه، لِيُقالَ بصيغةٍ لا يَشوبُها تغييرٌ أو شَكٌّ[6].

بُـطْـلانُ كـلِّ هدايةٍ غيرِ هدايةِ اللـه تـعـالى هو مضمونُ القولِ هنا

فائدةُ إضافةِ الهدى إلى اللهِ تعالى في ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾، تعريفُ المسنَدِ إليه بإضافته إلى اللّه تعالى؛ للدّلالة على الهُدى الوارِدِ مِن عنده ﷻ، وهو الدّينُ المحصورُ بالهداية، وهو هنا الإسلام، بقرينةِ قوله:

الهدى واردٌ منه ﷻ، ولـذلـك وَجَبَ الالتزامُ به

(1) الطِّيبِيّ، فتوح الغيب: 6/135.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/168، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/514، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/551، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149.
(3) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 6/114، وطنطاويّ، الوسيط: 5/104.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/150.
(5) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/148، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/171.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/298، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/530، والآلوسّي، روح المعاني: 4/159.

﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1].

اجتماعُ المؤكِّداتِ والقَصْرِ في قوله: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾:

الهدى من الله تعالى، وما خالفه ضلالٌ محضٌ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾، جاءتِ العبارةُ في غايةِ القوّةِ والتّأكيدِ؛ لأنّهم كانوا يزعمون "أنّ دينَهم هُدًى، فلذلك خُوطِبوا بصيغةِ القَصْرِ وهي: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾، فجيءَ بتعريفِ الجزأين، وضميرِ الفصل، وحرفِ التّوكيد، فاجتمع في الجملة أربعةُ مؤكِّداتٍ؛ لأنّ القصْرَ بمنزلة مؤكِّدَيْن؛ إذ ليس القصرُ إلّا تأكيدًا على تأكيدٍ، وضميرُ الفَصْلِ تأكيد، و﴿إِنَّ﴾ تأكيد، فكانَت مقتضى حالِ المشركين المنكِرين أنّ الإسلامَ هدًى"[2]. ويُضاف إلى ذلك أنّ النّظمَ بدأ بالفعل ﴿قُلۡ﴾، وتضمّنَ: ﴿إِنَّ﴾، وإضافةَ (الهدى) إلى اللّه تعالى، والتّصريحَ بعَلَمِ الجلالة، وضميرَ الفصل، وتعريفَ الهدى تعريفَ الجنسِ الشّاملِ لأفرادِ الهدايةِ، وأسلوبَ الحصرِ بتعريفِ الجزأين، والتّعبيرَ بالجملة الاسميّة؛ وذلك تأكيدًا لمضمون الخبرِ وتقويةً له، وقطعًا لكلِّ شبهة قد يُثيرها مَن دَأَبَ على الجَدَل ومَرَنَ عليه، كقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: 32]"[3]؛ يعني: هو الهدى الكاملُ النّافعُ، كما إذا قلتَ: (عِلْمُ زيد هُو العلمُ)، معناه ما ذكرناه من تقريرِ أمرِ الكمالِ[4]، وهو قَصْرُ صفةٍ على موصوفٍ، فَقَصْرُ صفةِ الهدايةِ على هدايةِ اللّه تعالى هو قَصْرٌ حقيقيٌّ؛ لأنّ الهُدى حقُّ اللّه تعالى وحدَه حقيقةً وواقعًا، ومن هنا فقوله جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾، يفيدُ أنّ الهدى حقٌّ للّه تعالى وحده؛ لنفي الهدايةِ عن سواه؛ إذ كانوا يزعمون أنّ دينَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/303.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/303.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/168، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/514، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/150.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/26.

هدًى، فلذلك خُوطِبوا بصيغةِ القَصْرِ[1]، وهي بمعنى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19][2].

دلالة (أل) التّعريف في قوله: ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾:

جميعُ أنواعِ الهُدى لله وحده، وما عداها وهمٌّ وباطلٌ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾، عرّف الهدى بـ (ال) الدّالّة على الجنس[3]؛ ليشملَ كلَّ أنواع الهدى، ليناسبَ الحَصْرَ؛ فليس الهدى المحصورُ هدًى واحدًا، بل إنّ كلَّ أنواع الهدى هي حقٌّ لله تعالى وحدَه.

بلاغةُ العطفِ في قوله تعالى ﴿وَأُمِرۡنَا﴾:

الأمرُ بالإسلام والأمرُ بالهدى، كلاهما مُعتَبرٌ في البلاغ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَأُمِرۡنَا﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾، فهو ممّا أُمِرَ بقوله وإعلانه[4]، فالعطفُ للدّلالة على أنّ الجملةَ داخلةٌ في المقول، فكلاهما مأمورٌ بقوله: (قلْ: هذا القول)، وقلْ: أُمِرنا ﴿لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾"[5].

الغرضُ من بناءِ الفعلِ ﴿أُمِرۡنَا﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعِلُه:

عدمُ ذكرِ الفاعل في السّياق؛ لاشتهارِ أنّ الأمرَ منه تعالى دون غيره

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، جاء الفعلُ مبنيًّا للمفعول؛ للإيجاز بحذف الفاعل، اعتمادًا على العِلْم به وشهرتِه؛ فالآمرُ هو اللّهُ تعالى، وكَوْنُ اللّهِ تعالى هو الآمر، معلومًا علمًا لا يقعُ فيه لَبسٌ، فأوجزَ اعتمادًا على ذلك.

فائدةُ التّعليلِ باللّام في قوله: ﴿لِنُسۡلِمَ﴾:

الإسلامُ لله تعالى والانقيادُ له هو لُبُّ الهدى وغايةُ البلاغ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، جاءتِ اللّامُ لتعليلِ الأمرِ بالقول[6]، وتعيينِ ما أُريد به، كأنّه قيل: أُمرنا بالإخلاص، لكي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/303، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2555.
(2) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 2/23.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/304.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/150.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/168، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/515، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/553.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/19، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/171.

ننقادَ ونستسلمَ لربِّ العالمين[1]؛ أي: أُمرنا أن نقولَ ذلك عن خُلوصٍ طَويّةٍ لننقادَ لأمره[2].

إيثارُ التّعبيرِ بـ(لنفعل) دون (بأن نفعل):

بيانُ علّةِ الأمرِ يُحدّدُ الغايةَ منَ الصّيغةِ المتوخّاةِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وردَ في الآية الكريمة التّعبيرُ ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ﴾، ولم يقُل: (أُمرنا بأنْ نُسلمَ)؛ لأنّ الباءَ للإلصاقِ، فَتَدلَّ على وقوع الأمر بالإسلام، ولكنّه تعالى أراد أن يخبرَ بالعِلَّةِ الّتي لها وقَعَ الأمرُ، فعَبَّر باللّام الدّالَّة على التّعليل، والمعنى: أُمرنا للإسلام[3].

دلالةُ اللّامِ على التّخصيص في قوله: ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

إخلاصُ الدّين لله تعالى هو جَوْهرُ الامتثالِ والعبوديّةِ

عَبَّر النَّظْمُ عن إخلاص الدّينِ كلِّه لله تعالى، بإدخالِ لام التّخصيصِ على لفظ الجلالة، في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والمعنى: "وأُمِرنا بأنْ نُسْلِمَ، ونُخْلِصَ العبادةَ لله ﷻ مالكِ العالمين؛ فأَسْلَمْنا؛ لأنّه هو الّذي يستحقّ العبادةَ منّا، لا غيره"[4].

التّعبير بالاسم الظّاهر في ﴿لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

رُبوبيّةُ الله للعالمين هي عِلّةُ وجوبِ انقيادِ النّاسِ له أجمعين

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عَبَّروا عن أمرِهم بالإسلام لله ربّ العالمين، فأَظْهَروا الاسمَ الجليل فقالوا: ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وكان ظاهرُ السّياقِ أن يقولوا: (لنسلمَ له)، فأقاموا الظّاهرَ مقامَ المضْمَرِ، تنبيهًا على سببِ اسْتِحْقاقِهِ أن ينقادَ له النّاس؛ وهو أنّه مالِكُ العَوالمِ كلِّها[5].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/37، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/168، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/553، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/150.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/81.

(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/262، والواحديّ، البسيط: 8/226.

(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/416.

(5) السّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/895.

إيثارُ التّعبيرِ بكَوْنِه ربَّ العالمين:

وصفُ الله بأنّه ربُّ العالمين، تعليلٌ لِلأَمْرِ بالإسلامِ له

قولُهُ جَلَّ شأنُه: ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وَصَفوا إسلامَهم بأنّه لربّ العالمين؛ تنبيهًا على أنّه مالكُ العالمِ كلِّه، ومِن ضِمْنِه تلك الأصنامُ الّتي عَبَدها المشركون[1]، وقد كان الإعراضُ عنِ المالك، وعِبادةُ المملوك، دليلًا على سَفَهِ الاختيارِ، وسوءِ القرارِ، فكان أنْ جاء السّياقُ مؤكِّدًا الأمرَ بالإسلام للمالِكِ لا لِلْمَمْلوك؛ وفي ذلك وعظٌ حكيمٌ، وتنبيهٌ لطيفٌ إلى الحقيقة الجَليَّةِ البعيدةِ عنِ التّزييف، كما أنّ في هذا الوصفِ تعليلًا للأمْرِ بالإسلام، وتأكيدًا لوجوبِ الامتثالِ له[2]، بحيثُ يكون المعنى: وأُمِرْنا أن نُخْلِصَ العبادةَ ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنّه هو الّذي يستحقُّ العبادةَ لا غيره[3]. وفي ذِكْرِ اسمِ اللّه تعالى بوَصْفِ الرّبوبيّة لجميع الخَلْقِ، دونَ اسْمِه العَلَم، إشارةٌ إلى تعليلِ الأمرِ وأحَقِّيّته[4].

المتشابِهُ اللّفظيُّ:

العبادةُ والدّعاءُ يُقدَّمان في النَّفْعِ، ولَفْظا المُلك والقُدْرَة بِعَكْسِهما

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، جاء بتقديم النّفعِ على الضَّرّ، وكذلك في سورة الأنبياء: ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنبياء: 66]، وفي مَواضِعَ أُخرى كما في يونسَ والحجّ والفُرقان وغيرها: يُقدَّم الضَّرُّ على النّفع، كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: 18]، وعلَّةُ ذلك أنّ دَفْعَ الضّرّ أهمُّ من جَلْبِ النّفع، فلمّا تقدّم ذِكْرُ نفي المُلك والقدرة عنهم، كان تقديمُ ذكرِ دفعِ الضّرِّ، وانتفاءِ القدرةِ أهمَّ، أمّا في سِياقِ العبادةِ والدّعاءِ فإنَّ المقصودَ بهما غالبًا طلبُ النّفعِ وجلبِه، فكان تقديمُ النّفع أهمَّ[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/554.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/150.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 2/124، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/171.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/304.
(5) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 162، والسّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/893.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الرِّدَّة) و(الرُّجوع):

الرِّدَّةُ رَجْعَةٌ مقصودةٌ منَ الإيمان إلى الكفر والرّجوعُ عامٌّ من كلّ شيء

الرِّدَّةُ: الرّجوعُ في الطّريق الّذي جاءَ منه، وكذا الارتدادُ، لكنّ الرّدَّةَ تختصُّ بالكفر، والرّجوعَ أعمّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم﴾ [محمّد: 25][1]. فالرِّدَّةُ عَوْدٌ خاصٌّ، وهو العَوْدُ إلى الحالة الأُولى الّتي كان الإنسانُ عليها منَ الجهل[2]، فكان التّعبيرُ بـ﴿وَنُرَدُّ﴾ أنسبَ وأدقَّ؛ لأنّها في سياق تركِ الإسلامِ والرّجوعِ إلى الكفر.

(الصَّديق) و(الصَّاحب):

الصّداقةُ منَ الصِّدْقِ، والصّحبةُ قد تكون في الصّدق وفي غيره

"الصّداقةُ اتّفاقُ الضَّمائرِ على المَوَدَّة، فإذا أَضْمَرَ كلُّ واحد منَ الرَّجُلَيْنِ مودَّةَ صاحبِه، فصار باطِنُه فيها كظاهِرِه، سُمِّيا صديقَيْنِ"[3]، و"الصّحبةُ تفيد انتفاعَ أحدِ الصّاحبَيْنِ بالآخَر"[4].

وللصّديق خصوصيّةٌ ينمازُ بها عنِ الصّاحبِ، وبذلك جاءَت آياتُ القرآن الكريم، فنجد أنّ الصّديقَ يحظى بمكانة رفيعة، قال تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النّور: 61]، فذكر الصّديقَ في سياق مَن يُؤكل في بيته، وقُرن مع ذِكْر الأقاربِ، ومنه قولِه تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشّعراء: 100 - 101]، حيث يصفُ حالَ المُشركينَ، وهُم يصرخونَ في النّار، نافيًا وجودَ صديقٍ، وهذا يبيّنُ مكانةَ الصّديق، وأمّا الصّاحبُ فوَرَد له استعمال آخرُ غير ما مضى، فقد تكونُ الصُّحبةُ بينَ مُسلم وكافر، كما في قولِه تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ [الكهف: 37]، وقد تكونُ الصُّحبةُ بينَ نبيٍّ وكافرٍ، كما في صُحبةِ النّبيّ يوسف ﷺ لِمن كانَ معَه في السّجن. ولذا فإنّ المرادَ من قوله ﷺ:

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 477.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/99.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 285.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 283 - 284.

﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ﴾، مجرّدُ الأصحابِ المرافقين في الطّريق، من غير أن يكونَ بينهم لونٌ منَ الودّ، أو شيءٌ من قوّة القُرْبِ والانسجامِ.

ثُمَّ قد ترِدُ الصُّحبَةُ بخصوصيّة أخرى تُمثّلُ وصفًا رافيًا بحسبِ الموصوفِ بِها، فصاحبُ النّبيّ ﷺ في الغار وُصِف بالصّحبة لشرف المصحوب، وتمثّل كذلك حالًا ملازِمًا للصاحب في معنى اصطحاب المصحوب وكثرة ملازمته، بما لا يتوفّر في معنى الصّديق.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 11 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-63-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 11 : سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-63-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»